

الوثيقة

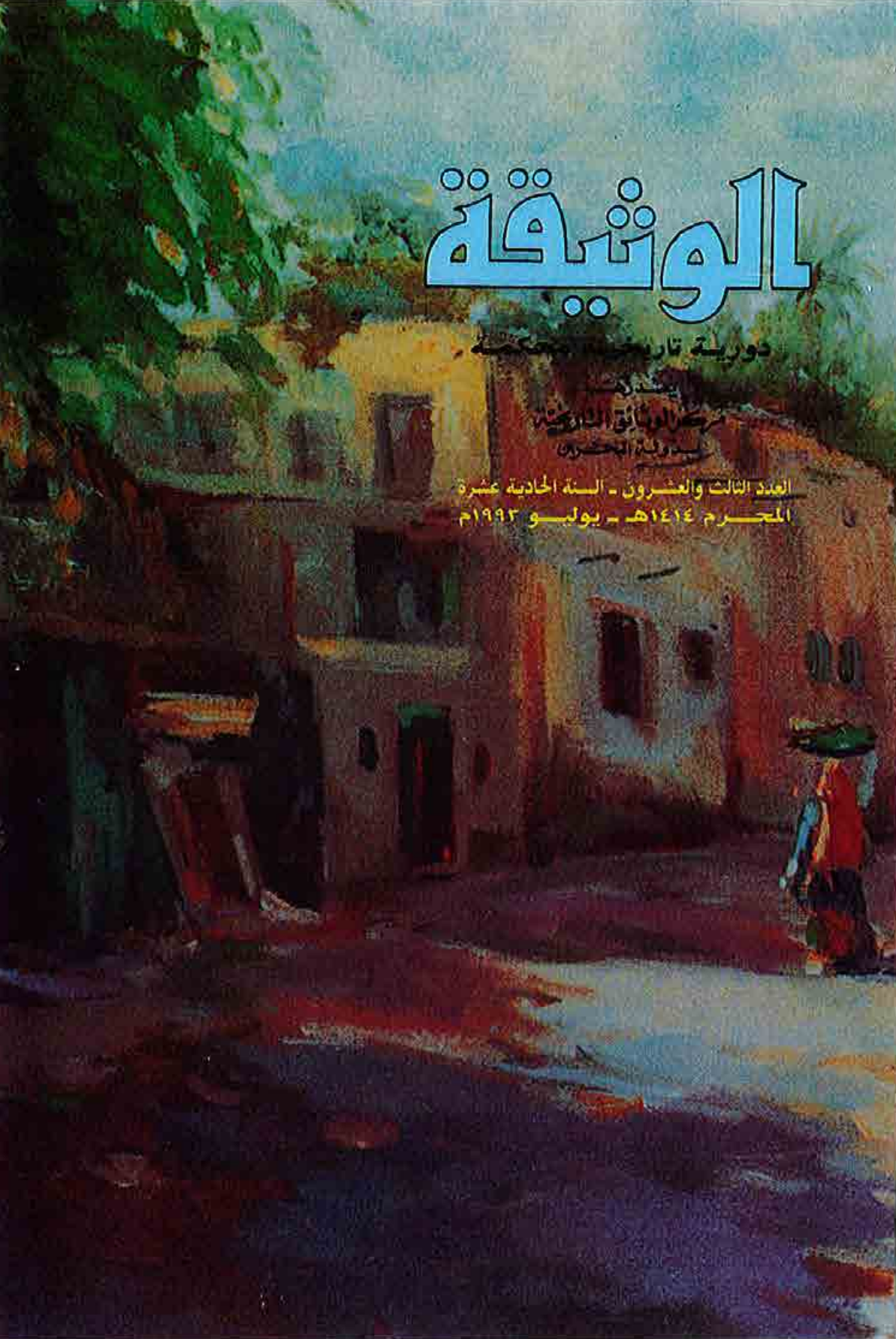
دورية تاريخية محكمة

يتمتعون

مركز الوثائق التاريخية

بمدينة الحضر

العدد الثالث والعشرون - السنة الحادية عشرة
المحرم ١٤١٤هـ - يوليو ١٩٩٣م



ابن ساجد

وسرف أفريقيا

دراسة من خيال مؤلفاء

الدكتورة صباح
ابراهيم الشبخلي

لا أريد بهذه المقدمة أن أؤرخ للعلاقات العمانية الإفريقية ، وإنما الهدف هو تقديم موجز عن علاقات عمان بشرق أفريقيا من حيث دوافعها وأسبابها وطبيعة هذه العلاقة ولكي أصل منها إلى اهتمام ابن ماجد الكبير بشرق أفريقيا وصلته بها . والواقع أنني لا أتى بشيء جديد إذا ما قلت أن علاقة العرب بشرق أفريقيا بدأت منذ وقت مبكر قبل الإسلام ، وكان العمانيون فضلا عن اليمنيين والحضارة «أول رواد لساحل أفريقيا الشرقي» وأكثر تأثيراً في المنطقة من أي فريق آخر .

وقد ساعدت عوامل عدة على الاتصال بين العمانيين وسكان شرق أفريقيا يأتي في مقدمتها العلاقة المكانية المتأنية من موقع عمان الجغرافي المهم ، فهي تمتد مواجهة للخليج العربي والمحيط الهندي ، وتقع على طريق التجارة البحرية التي تأتي من أسواق المحيط الهندي ، وهذا ما جعلها مركزاً لتجميع السلع الآتية من أفريقيا ومن الهند والصين إلى أنحاء العالم المعروف آنذاك (١)

فالتجارة هي التي حملت العمانيين إلى أفريقيا ، وبحكم نمو التبادل التجاري بين الطرفين وصلت مراكب العمانيين إلى مناطق سفالة (موزمبيق) والواق واق - آخر أرض الزنج (٢)

علاقات عمان بشرق أفريقيا حتى القرن ١٦هـ/م

ببحر بربري .. موجه عظيم كالجبال الشواقي ... وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عمان غرب من الأزدي وينتهي هؤلاء في بحر الزنج إلى قنبلو على ما ذكرنا ، وإلى بلاد سفالة والواق واق من اقاصي أرض الزنج وأسافل من بحرهم ... وقد ركبت هذا البحر من مدينة سنجار إلى بلاد عمان» (٣)

إن إشارة المسعودي هذه لتقوم دليلاً قاطعاً على وجود صلة مباشرة ونشطة بين عمان وشرق أفريقيا ، وإن أصحاب السفن العمانيين يسرون

أن ارتباط الشاطيء العماني بالبحر منذ وجوده ، جعل من شعبه ملاحين مهرة وأصحاب سفن قاموا برحلات خطيرة عن طريق المحيط إلى الأراضي في شرق أفريقيا ، فقد ذكر المسعودي في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي أن «أهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج (خليج بربري) إلى جزيرة قنبلو في بحر الزنج وفي هذه المدينة مسلمون بين الكفار الزنج والعمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن الخليج المعروف بالبربري ، وهم يعرفونه

بمراكبهم الى أقصى جهات الساحل الشرقي لافريقيا .

ومما ساعد عرب عمان في التوجه البحري والتجاري نحو شرق افريقيا معرفتهم الجيدة بالبحر وطرق الملاحة وقوانينها ، ولا سيما الرياح الموسمية التي تهب على منطقة المحيط الهندي ، والتي مكنت سفنهم الشراعية من القيام برحلتين منتظمتين في السنة بأقل مجهود - ففي الخريف تندفع الرياح نحو الجنوب الغربي فتخرج السفن من خليج عمان الى المحيط الهندي ثم تسير بمحاذاة الساحل الافريقي . وفي الربيع تندفع الرياح باتجاه شمالي شرقي بحيث تمكن السفن من العودة الى قواعدها في ساحل عمان . وهكذا استغل أهل عمان مهارتهم البحرية فاندفعوا الى الشرق الافريقي خدمة لأغراضهم التجارية^(٤)

وفضلا عن ذلك فقد أسهمت الاوضاع السياسية والدينية بعد تكوين الدولة العربية في عمان في هجرة الكثير من العمانيين الى شرق افريقيا والاستقرار فيها لبعدها عن المنطقة عن الاحداث في الخليج العربي . ففي النصف الاول من القرن الاول للهجرة/ السابع للميلاد ، وبعد انتفاضة حكام عمان الازديين من آل الجلندي على حكم الخليفة الاموي عبد الملك بن مروان ، هاجر سليمان وسعيد ابنا الجلندي مع بني قومهم الى شرق افريقيا ، بعد هزيمتهم على يد جيش الخليفة الذي أرسله الى عمان

بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي عامله على العراق من أجل إخضاع عمان لسلطة الخلافة أولا ومن أجل السيطرة على الطريق التجارية البحرية التي تربط عمان بالشرق الاقصى من جهة وشرق افريقيا من جهة أخرى^(٥)

ويعتقد أن هذه هي أول هجرة عربية الى مناطق الساحل الشرقي لافريقيا وهذا يعني أن العمانيين أول من أقام مستعمرات لهم في هذه الجهات^(٦)

ولا نعرف على وجه الدقة المكان الذي استقر فيه هؤلاء الازد ، ولكن المعروف أنهم أقاموا في باتا (احدى جزر أرخبيل لامو شمالي كينيا ، بل تذهب الروايات الى أنهم أسسوا مدينة باتا^(٧))

أما الهجرة العمانية الاخرى المهمة الى شرق افريقيا فهي هجرة الاسرة النبهانية . والمعروف أن القبائل النبهانية كانت قد فرضت سيطرتها على عمان في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي . وبعد خلافاتهم مع اليعاربة وانهايار دولتهم هاجر النبهانيون (عام ٦٠١هـ/ ٢٠٣م) ، بزعامة سليمان النبهاني الى شرق افريقيا واستقروا في مدينة باتا . وقد تزوج الحاكم النبهاني من ابنة حاكم باتا العربي البتاوي وأصبح حاكما على المنطقة ، كما أن باتا نفسها أصبحت مركزا للسلطة النبهانية التي استحوذت على ساحل افريقيا الشرقي . وغدت باتا في

القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي أقوى دولة على الساحل ، وانتعشت فيها حركة التجارة ، وظلت هكذا حتى القرن التاسع عشر الميلادي (٨)

وبذلك يكون العمانيون قد نجحوا في مد سلطانهم إلى ساحل افريقيا الشرقي واقامة امارات تابعة لهم . وفي ضوء العلاقات الوثيقة لعمان بشرق افريقيا ، يبدو طبيعياً أن يكون لرجل البحار ابن ماجد العماني اهتمام كبير بها ، وهذا ما سنحاول بحثه في الصفحات التالية .

ابن ماجد وشرق افريقيا :

دفع اهتمام العمانيين باقامة علاقات بحرية وتجارية وسياسية مع شرق افريقيا ، البعض من رجالها لدراسة قواعد واصول الابحار اليها بل وتأليف مجموعة كبيرة أو صغيرة من المقالات عنها ، وإلى هذه المجموعة ينتسب ابن ماجد .

لا نجد صعوبة في التعرف على ابن ماجد ، فهو يعرف بأصله ونسبه وثقافته ونتاجه العلمي الذي يعد اسهاماً مهماً في مجال الحضارة الانسانية . فاسمه الكامل شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركايب النجدي (٩) ويبدل نسبة علي أن أصل أسرته من وسط الجزيرة العربية من نجد في الحجاز . أما هو نفسه فمدينته جلفار (عمان سابقاً ورأس الخيمة حالياً) (١٠)

وينحدر ابن ماجد من أسرة ربابنه ، فقد ورث العمل في البحر من جده وأبيه فقد كان جده ملاحاً مشهوراً ، أما أبوه فقد كان يلقب (بربان البحرين) ، وقد دون تجاربه الملاحية في مصنف ضخم هو (ارجوزته الحجازية) (١١)

ونشأ ابن ماجد وترعرع في بيئة بحرية وأسرة اهتمت بالبحر ، فأثر ذلك في اختيار مهنته كملاح يركب البحار إلى آخر أيام حياته التي عاشها في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي ، مع العلم أننا نجهل تاريخ ميلاده أو وفاته .

كانت شرق افريقيا واحدة من الجهات التي ، قصدتها ابن ماجد وهو يقود مركبه في البحار (١٢)

أما متى بدأت علاقته بشرق افريقيا ، فليس لدينا أي إشارة عن ذلك ، ولكن من الواضح أنها بدأت مع بداية اهتمامه بالبحر وركوبه فيه ، والمعروف أن ابن ماجد كان قد تولى قيادة المراكب وهو بعد حدث صغير مع أبيه وهو في سن العاشرة من عمره ، وعند بلوغه سن العشرين تولى مسؤولية المركب مسؤولية تامة (١٣)

فقد سفن المسافرين والتجار من عمان إلى شرق افريقيا . ان زيارات ابن ماجد إلى شرق افريقيا التي لا تعد ولا تحصى ، ولدة تزيد على نصف قرن ، قد اكتسبت تجربة عميقة عن المنطقة وسكانها ، وحكامها ومنتجاتها ، وجغرافيتها ،

مهمة وطريفة عن شرق افريقيا ، وهو الكتاب الوحيد الذي كتبه بالنثر .

أما تاريخ تدوينه فإن ابن ماجد أثناء عرضه للكتاب يذكر عدة تواريخ (١٩) . مما يستدل منه على أن المؤلف

قد أضاف اليه عدة مرات وأعاد تنقيحه بصورة يمكن القول بأن الكتاب قد كتب بين عامي ٨٨٠ - ٨٩٥هـ / ١٤٧٥ - ١٤٨٩م ويبدأ الكتاب بالتاريخ الاول .

ويعكس ابن ماجد في كتابه أحسن ما حصل عليه من خبرات علمية اكتسبها عبر عدة عقود كقائد بحري أثناء رحلاته في المحيط الهندي . كما يستعرض فيه المعلومات الواسعة عندما ينقل عن عدد كبير ممن سبقوه في مضمار الجغرافية و الملاحة والفلك ، ومبينا ضعف تأليفهم ، فيرى نفسه مدفوعا الى نشر ما عنده خشية الضياع ولكي تستفيد منه الاجيال بعده . ويحاول ابن ماجد أن يشعر القارئ بأن ما صنفه في كتاب « الفوائد » قد نال استحسان معاصريه من أهل مهنته وعملوا به واعتمدوا عليه (٢٠) .

ويعد ابن ماجد على حق في ذلك ، إذ أثار كتابه هذا ليس اعجاب معاصريه فحسب ، بل الكتاب المحدثين أيضا ، الذين عدوه ذروة ما ألف في مجال الملاحة والفلك ، وأول مؤلف للمرشديات البحرية الحديثة (٢١) .

وكتاب « الفوائد » محبوب الى اثني عشر قسما يطلق المؤلف على كل منها اسم « فائدة » ، وتحتوي بعض هذه

وفنون الملاحة البحرية في مياهها ، كما انها اطلعته على ما عند سكان المنطقة من معرفة ملاحية وجغرافية للمياه والسواحل وقد أخذ منها الصحيح وانتقد الخطأ وصوبه (١٤)

كانت تجربة ابن ماجد الشخصية الغنية في مسالك البحار (وضمنها مياه شرق افريقيا) ، فضلا عن تجربة جده وابيه التي أخذها ، قد أغنتها اطلاعاته الواسعة على عدد من مؤلفات من سبقوه في ميدان اختصاصه (١٥) فضلا عن المؤلفات الاخرى في ميادين متعددة (١٦) . فقد واظب ابن ماجد على طلب المعرفة التي نذر نفسه لها واجتهد في سؤال معاصريه طوال حياته (١٧) .

بدأ ابن ماجد ، وبما أحرزه من تجربة شخصية طويلة ، بتحرير مؤلفاته شعرا ونثرا عن المناطق التي رحل اليها ومن بينها شرق افريقيا ، والتي أثبت فيها مقدرة نادرة في معرفة سواحل المحيط الهندي ، ونال الحظوة عند بعض حكام شرق افريقيا (١٨) .

مؤلفات ابن ماجد عن شرق افريقيا :

ذاع صيت ابن ماجد ليس كملاح محنك بل ككاتب كثير الانتاج أيضا . وقد بقي من مؤلفاته الى اليوم ما يربو على الأربعين مؤلفا شعرا ونثرا . والمهم في الامر ان ابن ماجد قد خصص نصيبا مهما في مؤلفاته عن شرق افريقيا .

وفي كتابة « الفوائد في اصول علم البحر والقواعد » يجد الباحث شذرات

الاقسام على معلومات قليلة غير انها مهمة عن شرق افريقيا يمكن حصرها بالآتي :

١ - في الفائدة الرابعة المخصصة

للمنازل وورود الرياح وتسمى (الاخنان) المرتبطة بطلوع نجوم معينة ومغيبها ، يشير ابن ماجد الى (الاخنان) الخاصة بالساحل الافريقي التي يجب ان يعرفها ملاحو هذه المياه^(٢٢) .

٢ - في الفائدة التاسعة التي تتعلق

بدورة البحر على جميع الدنيا ، فيها وصف للسواحل ، ومنها ساحل افريقيا الشرقي باقسامه المتعددة (بربرا الزنج ، سفاله ، وما بعدها) والمدن المنتشرة على ساحله^(٢٣) .

٣ - والفائدة التاسعة تهتم ايضا

بوصف الجزر الكبار المشهورات والمعمرات حيث نجد ذكرا لبعض جزر شرق افريقيا ، كجزر القمر ، وجزيرة زنجبار^(٢٤) .

٤ - اما الفائدة الحادية عشره التي

يتناول الكلام فيها مواسم السفر في البحر ، نجدها تتضمن السفر الى شرق افريقيا^(٢٥) .

وسوف نفضل في قيمه هذه المعلومات وأهميتها في الصفحات التالية :

أما المصنف الثاني الذي خصصه ابن ماجد عن شرق افريقيا ، فهو أرجوزته المسماه بـ (السفالية) ، نسبة الى منطقة سفالة في ساحل افريقيا الشرقي . ان هذه التسمية

تعكس لنا مدى اهمية شرق افريقيا عند ابن ماجد ، وان هذه الاهمية كانت حجر الزاوية في العلاقات العربية الافريقية في الفترة التي عاشها ابن ماجد أيضا .

وتعد « السفالية » صورة كاملة للساحل الافريقي الشرقي ودليلا للملاحه فيه . وتنحصر أهميتها ، بالنسبة للموضوع ، في كونها تتضمن معلومات جغرافية وتاريخية ودلالات سياسية في غاية الاهمية ، وذلك فضلا عن الجوانب الاساسية المختلفة للملاحه في مياه شرق افريقيا .

ويبين ابن ماجد في سفاليته سبب تأليفه لها والموضوعات التي كتبت فيها وأهميتها بقوله :

هي سبع مائة بيت تزيد عنها عن احمد السعدى أحفظها

وادع لى في الموت والحياة

من الاله غافر الزلات

نظمتها ولم أر السؤال

كلا ولا رأيت السائل

شتان بين السائل المجود .

وبين من لم للسؤال يهتدى

عرفتها حتى بقى ربانها

يسألنى عنها وعن شعبانها

وخصنى والى البلاد بالسفر

من دون غبرى بالهدى والظفر

لاشك ان من يرى بالعين

تركن اليه الناس باليقين

كفى بدا في جودة السؤال

تصورت بالقلب بالكمال

شعبانها والبر والقياس

والريح والموسم ثم الناس

ماجد بعد ذلك محق بأن يعتبر هذه (الارجوزة) الدليل الوحيد للطريق الى جنوب الساحل الافريقي الشرقي^(٢٧).

اما مصادر كتابته للسفالية فلا نجد لها ذكرا في الارجوزة بصورة صريحة . ولكن كثيراً ما نجده يشير الى أنه أخذ (عن ذوى التجارب)^(٢٨) . ونقل (عن خابر قد جربه)^(٢٩) ، (وقيل لى)^(٣٠) . و (ممن يصدق هذا الخبر)^(٣١) . فهو اذا لم يحدد مصادره ، وهذا يعنى أنه أخذ عن سبقه في المهنة من الملاحين ذوى التجارب والمعرفة .

كما أنه قرأ المرشديات البحرية ، ولكنه لم يعتمد عليها كمصدر من مصادر تدوينه للسفالية لانها عديمة الفائدة بعد تبدل الاسماء وتغيرها في أيامه^(٣٢) . كما انه أخذ بعض المعلومات عن الافرنج (يعنى البرتغاليين) بعد وصولهم^(٣٣) . أما المصادر المتعلقة بتجاربه الخاصة فلها مكان واسع في سفاليته . حيث يسجل ابن ماجد مرات عديدة أن الظواهر والموضوعات التى يصفها قد رآها وخبرها بنفسه^(٣٤) . فضلا عن تجاربه وخبرته الطويلة في مهنته . حمل ابن ماجد ذلك كله في ذهنه عندما بدأ يكتب عن شرق افريقيا فكان ماكتبه في مجموعه يمثل صورة كاملة للساحل الافريقي الشرقي . ويمكن أن نقسم مادونه عن تلك المنطقة الى قسمين الاول جغرافي وملاحى والثانى تاريخى .

ثم المطارح ودخول الجزر حقت بالتدقيق اسم شور واعبر لها بالحزم والصلاة على النبى اتخذ وصاتى^(٣٦) فابن ماجد لم يؤلف سفاليته المتكونه من أكثر من سبعمائة بيت من الشعر ، الا بعد أن عرف شرق افريقيا وتخصص بالسفر الى تلك البلاد ، ونال الحظوة عند حكامها الى درجة أنه منح حق السفر اليها دون غيره لأنه اهتدى الى طرقها ونجح فى الوصول اليها دائما ، فكان ذلك سببا فى لجوء الناس وربابنة السفن عن قناعة اليه يسألونه أن يصف لهم شرق افريقيا تاركين غيره من الذين يؤمنون تلك البلاد . عرف ابن ماجد تلك المنطقة بالعين المجردة ، فكتب عن موضوعات متنوعة فى سفاليته ، فوصف بر تلك المنطقة وشعابها ، وقياسات ومواسم السفر والرياح التى يجب ان يسافر الناس فيها ، وناس تلك المنطقة ، كما ذكر المطارح ودخول الجزر ولم يكتب ذلك كله الا بعد التحقيق الدقيق ، فحق له بعد ذلك أن يطلب ممن يقرأ قصيدته السفالية بأن يدعوه له بالغفران .

أما الطريقة التى دون بها ابن ماجد معلوماته عن شرق افريقيا ، فقد اتصفت - كما يذكر هو نفسه فى (السفالية) - بالشمول ، والصدق ، وصحة المعلومات بسبب علمه الكبير بالمنطقة ومعرفته بها . كما سجل ما هو متفق عليه وما يلائم المسافر الى تلك المناطق ويهديه الى نهايتها . فابن

معلومات ابن ماجد الجغرافية والملاحية عن شرق افريقيا : ١. المعلومات الجغرافية :

يعد الجانب الجغرافي الذي كتبه ابن ماجد عن شرق افريقيا مبنيا على المعلومات المأخوذة والمنقولة من الكتب الجغرافية الوسيطة للجغرافيين العرب فضلا عما عرفة عن جغرافية تلك المنطقة من خلال خبرته الشخصية .

قسم ابن ماجد الساحل الافريقي الشرقي الى اربعة اقسام :
بربرا ، والزنج ، وسفالة والمنطقة الرابعة ما يقع بعد سفالة من بلاد^(٣٥) . وهو نفس التقسيم الذي اتبعه الجغرافيون العرب مثل المسعودي في كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » الحموي في كتابه « معجم البلدان » وابن سعيد في كتابه « الجغرافية » ، ولكن مما يثير الانتباه ان الجغرافيين العرب يطلقون على المنطقة الرابعة في تقسيم ساحل افريقيا الشرقي اسم (واق واق) بعدها ارض مجهولة غامضة لم يصلوا إليها^(٣٦) . ولاترد التسمية عند ابن ماجد بهذه الصورة ، مما يشير الى عدم استعمالها في أيامه والسبب واضح في ذلك وهو وصول العرب المسلمين الى تلك المنطقة ، فلم تعد المناطق بعد سفالة مجهولة غامضة عندهم ، فقد ذكر ابن ماجد عددا من مدنها وجزرها منها مليوني ، وخور مومة ، وملاتي ، وکلوانی^(٣٧) .

ومن جزرها شربوه وجزيرة اوزه وهي آخر ما وصله العرب في أيام ابن ماجد^(٣٨) . وبهذا يكون ابن ماجد قد اضاف اضافة مهمة الى معلومات الجغرافيين العرب الذين سبقوه بخاصة فيما يتعلق بتعريف المنطقة الرابعة وتقسيمها للساحل الافريقي الشرقي .

لا نجد في تحديد المناطق الثلاث المتبقية (بربرا ، والزنج ، وسفالة) اختلافًا واضحًا بين ابن ماجد والجغرافيين العرب الذين سبقوه . فبلاد بربرا وخليجها (الخليج البربري) تبدأ في ارض الحبشة وتنتهي ببلاد الزنج سواء عند ابن ماجد^(٣٩) . أو عند من سبقوه^(٤٠) . باستثناء أنه اضاف مزيدا من المعلومات عن هذه المنطقة حيث يذكر مدنها ، فبدايتها عنده بنذر موسى وجردفون ثم نجد حافون باتجاه الجنوب^(٤١) .

اما ارض الزنج ، فقد حددها الجغرافيون العرب بصورة دقيقة قبل ان يكتب ابن ماجد عن شرق افريقيا بعدة قرون ، وهي المنطقة الممتدة بين مدينة مقديشيو (في الصومال) الى بلاد سفالة^(٤٢) . فقد قدر المسعودي مساحة هذه المنطقة بنحو سبعمائة فرسخ بما فيها الاودية والجبال والرمال^(٤٣) . أما ابن ماجد فقد أعطانا مزيدا من المعلومات عن مدن هذه المنطقة والشريط الساحلي المتكون من عدد كبير من الجزر اذ يتكلم عن مقديشيو وبراو و منبسه وكلوه . وعن

كما يشير الى شدة الحر في هذه المنطقة ، لاسيما قبل الدخول الى براوة ثم يسير ابن ماجد جنوبا الى مدينة كتاوة (باتا) ، حيث يصف الخور الطويل الذي تقع في بدايته وعلى الجهة اليمنى بالضبط ، والى اليسار من هذا الخور تقع مدينة لامو^(٤٩) . والمعروف أن باتا (كتاوة) ولامو مدينتان من جزر أرخبيل لامو ومن الصعب الفصل بينهما ، فالاولى كانت العاصمة السياسية والثانية العاصمة التجارية في هذا الارخبيل^(٥٠) ولذا نجد أن ابن ماجد قد أشار إلى الاثني معا .

يسافر ابن ماجد بعد ذلك الى مالندى ويصف مالندى بأنها واقفة على رأس بحرى طويل واضح للمسافر^(٥١) . والى الجنوب منها مدينة منبسة الواقعة على ضفة خور كبير تدخله المراكب ، ويصفها بأنها جزيرة قريبة جدا من البر^(٥٢) . وهذا الوصف يطابق ما جاء عند من سبقه من الجغرافيين العرب^(٥٣) . كما يشير الى احدى أهم مميزات منبسة وهي عمق البحر قربها وكفايته لحمل السفن للدخول الى مينائها^(٥٤) ، هذا ما يؤكد الربان الفرنسي جيان الذي زار المنطقة بعد ابن ماجد^(٥٥) .

ينتقل ابن ماجد بعد ذلك الى وصف مدينة من أهم مدن الساحل في أيامه وهي مدينة كلوة . وهنا نجده يسهب في وصف الجزر القريبة منها ، ويشير الى تميز هذه الجزر بوجود الاشجار العالية فيها^(٥٦) . كما نجده يحذر

الجزر الكبيرة مثل رنجبار والعديد من الجزر الصغيرة^(٤٤) . ومما يثير الدهشة ان ابن ماجد يصف على منطقة الزنج الممتدة من مقديشيو الى سفالة أسم أرض الحبشة الجنوبية الشرقية^(٤٥) . وهي تسمية لم ترد عند الجغرافيين العرب الذين سبقوه في وصف هذه المنطقة . ويبدو أنه أراد بهذه التسمية تحديد موقع المنطقة وكونها جزءا من أرض الحبشة .

أما سفالة ، القسم الثالث من الساحل الافريقي الشرقي ، فيسميها ابن ماجد سفال وسفاليه وسفالة^(٤٦) . وهي أرض الذهب عند من كتب قبله عن سفالة^(٤٧) . وقد فصل ابن ماجد في ذكر موانئها وجزرها بشكل لم يسبقه إليه أحد .

وتتضح معلومات ابن ماجد الجغرافية عندما يصف مدن الساحل الافريقي الشرقي . فهو يحدد الموقع ، المسافات بين المدن ، طبيعة الأرض والمياه فضلا عن حديثه أحيانا عن المزروعات والحيوانات والثروة المعدنية .

كذلك نجده يصف جغرافية الشريط الساحلي المتكون من الجزر سواء أكانت كبيرة أم صغيرة .

وعندما يتكلم ابن ماجد عن مدن بلاد الزنج يبدأ بمقديشيو ، ثم ينتقل الى مدينة مركة وبرأوة ، حيث نجده يقدر المسافة بينهما بيوم واحد ، فيقول :

لمركة ثم الى براوة تقطعها في يوم بالتلاوة^(٤٨)

المسافرين من شعب كلوة ويطلب منهم مجاراته حتى يدخل البحر ومن هناك الى المدينة^(٥٧) .

ومن كلوة الى بلاد سفالة ، حيث ينصح ابن ماجد بالسير بمحاذاة الشاطئ لأن طريق سفالة غير مأمون لاختلاف الريح فيه . كما يشير الى علو الماء في مدخل منطقة سفالة ، ومن علامات الدخول الى خور هذه المنطقة وجود الاشجار^(٥٨) .

ويشير ابن ماجد بصورة متكررة الى وجود الذهب في سفالة ، ويحدد مناجمه فيقول بأنها تقع في منطقة مياه (انهار) حيث يسكن هناك مجموعات من الناس الهمج ، كما يذكر كثرة الحيوانات المتوحشة من السباع والفيلة فيها^(٥٩) .

ويذكر ابن ماجد أن الجزر الواقعة بعد مناطق سفالة مثل جزيرة شربونة تحتوي على العاج والعنبر^(٦٠) . وأخيرا يصف المستنقعات والجبال الواقعة جنوب منطقة سفالة ، ويقول أن جزيرة وازة آخر ما وصل اليه العرب في سفراتهم ، أما بعدها فلا يعلمه الا الله ، حيث يدور البر الى الغرب .

ما يدهم سوى جزيرة وازة ولا جنوبيها أحد قد جازه درقاق اوساخ معها جبال يعلمها ربي ذو الجلال هو الذي تعرفه يا صاحب والبر هناك يدور في المغارب^(٦١) ويبدو في هذه الابيات أن ابن ماجد لم يصل الى تلك المناطق الواقعة جنوب سفالة .

وتنال جزر شرق افريقيا اهتمام ابن ماجد فمن الجزر التي يذكرها جزيرة القمر وهي عنده تقع على يسار أرض سفالة لانجد في يمينها أى برارى وجنوبها البحر بظلماته ممتد^(٦٢) . ويعد ابن ماجد جزيرة القمر من الجزر الكبار ، ومع ذلك لا يذكر مساحتها لاختلاف الآراء في ذلك ، فيقول :

« واختلف الرواة في طولها وعرضها ، لأنها مجنبة عن عمارة الدنيا وعن الاقاليم المسكونة في الدنيا . فلذلك وقع فيها الاشتباه وقد ذكروا في الكتب الكبار أنها أعظم جزائر الارض المعمورة ، وطولها قريب عشرين درجة ، وبينها وبين بر سفالة وجزره جزائر وشعبان ، ومع كل ذلك لا يمنع المسافر أن يجوز بينهما وجزيرة القمر منسوبة لقامر بن عامر بن سام بن نوح عليه السلام .^(٦٣) . وهذه المرة الوحيدة التي يحاول فيها ابن ماجد ذكر الاساطير الخاصة بشرق افريقيا ، ويبدو من كلامه أنه غير مقتنع بها .

ومن الجزر التي جاء ذكرها في كتابات ابن ماجد (منفية) ، حيث يذكر انها جزيرة تمر بها المراكب قبل وصولها الى كلوة وهي مثلثة الشكل معمورة بالناس ويبدو أن ابن ماجد معجب بهذه الجزيرة على الرغم من صغرها ، فيقول عنها :

لمنفية نعم فيها جزيرة مختصرة مثلثة معمورة^(٦٤) اما جزيرة واسيني ، الواقعة قرب مدينة منبسة ، فيبدو أنها تتصل بمستنقع ناحية الجنوب ، ولهذا

فكل هذه الجزر كبار
اعني لك الخضرا وزنجبار^(٦٩)
ويذكر أن حولها ما يربو على الست
عشرة جزيرة من ناحية الغرب
والجنوب وتكثر المستنقعات فيها بين
هذه الجزر .

وحول زنجبار هجلة جزر
قريب ستة عشر أعلم وأدرى
وهي في الجنوب والمغرب
عن زنجبار برسوخ
يا صاحب^(٧٠)

ويذكر من هذه الجزر الست
عشرة ، جزيرة الكافر ورأس النذل
وكوالمه وجزيرة الشرفاء وأسمها
الزنجي كما ذكره ابن ماجد (ايكوها
جوندة)^(٧١) .

ويعطي ابن ماجد صفة العظمة
لجزيرة زنجبار ويعدها مركزاً للحكم
الاسلامي منذ وقت مبكر . وما زالت
كذلك في زمانه . فقد عد المساجد
الجامعة فيها فوجدتها أربعين مسجدا
جامعا ، وهو يقول في ذلك :

وزنجبار جزيرة عظيمة
باربعين خطبة قديمة
ويقول عنها في الفوائد أيضا « ومنها
أربعون خطبة ، يحكم عليها سلاطين
الاسلام »^(٧٢) . ويحفظ ابن ماجد
عدة أسطر في كتابه الفوائد أيضا
لجزيرة زنجبار واصفا طبيعتها
الجرافية ، من أنهار وأشجار
ومناخ ، فيقول : « ممتدة على أرض
الزنج وهي ذات أشجار وأنهار .. وهي
جزيرة وخيمة »^(٧٣) .

يخطيء ابن ماجد الزنوج من سكان
المنطقة الذين يعتقدون أن المستنقعات
تتصل بها من ناحية الشمال ،
فيقول :

كذلك واسيني عليها وسخ
متصلا الى الجنوب يا خي
وقالت الزنوج أن منها
لكن في القلب فاحفظها
وذاك عندي خطأ يا صاح
اسمع لوصفي تلتقى
الصلاح^(٦٥)

ونظرا لوجود المستنقعات هذه
يطلب ابن ماجد من المسافرين في هذه
المنطقة أن يلتزم بالمجرى المعروف في
سيره والذي يربط واسيني بزنجبار
والواقعة جنوبيها^(٦٦) .

يتقدم ابن ماجد بعد ذلك جنوبها
الى الجزيرة الخضراء ، واصفا
للمسافرين الطريق السلوك الذي
يربطها مع جزيرة القمر جنوبها ،
ويعد ابن ماجد الخضراء من الجزر
الكبار في المنطقة^(٦٧) ، كما يصف
عددا من الجزر الصغيرة والمنتشرة بين
واسيني وزنجبار منها (رأس
الحمام) ، والمستنقعات الخفية التي
يجب على المسافرين تجنبها بالليل الى
ناحية اليمين من أجل سلامته . ثم
يذكر أن السفر من رأس الحمام وبلدة
ليلة واحدة يوصل المركب الى جزيرة
زنجبار^(٦٨) .

وجزيرة زنجبار من الجزر التي
تتال الحظوة في كتابات ابن ماجد إذ
يعدها إحدى الجزر الكبار في شرق
أفريقيا . فهو يقول :

٢ - المعلومات الملاحية :

تشكل المعلومات الملاحية والفلكية عند ابن ماجد جزءا مهما في كتاباته عن شرق افريقيا فقد أعدها ملامح دائب السفر وأحد ربابنة السفن المشهورين في مياه تلك المنطقة ، وسنحاول أن نتناول شذرات متفرقة منها للتدليل على أهمية وضرورة هذه المعلومات للمسافرين والتجار من مناطق شرق افريقيا والديها .. ولندع ابن ماجد يفصل فيما ذكره من معلومات ملاحية وفلكية تخص شرق افريقيا - فهو يقول في مقدمة ارجوزته المعروفة « بالسفالية » والتي خصها لشرق افريقيا الآتى :

هذه الارجوزة المسماة بالسفالية ومعناها يقتضى معرفة المجارى والقياسات من نواحي الساحل والزنج وأرض السفال والقمر وجزره ونواد علوم جميع ما في تلك النواحي الى آخر الارض في الجنوب وذكرت قياسات يعرف بهم المعلم النقصان والزيادة في جميع الاخنان ووصف نوادر في تلك الطريق من القياسات والدير والمجارى وسكان الارض وملوكها ومواسمها وسفرها على ما يليق بذلك المكان» (٧٤).

وقال شعرا في السفالية ، يتضمن الموضوع نفسه :

ذكرت ما خليت منه مجرى
ان جزت في عمرك هذا البحرا
تلقى بها قولى وحجة فعلى
لانه علم كبير عقلى
وصح أن البر والقمر هنا

ثمانية أزوام ما بينهما
في آخر القمر في الجنوب
متفق عليه يا حبيبي
وجزر طير الرخ والقصار
من نسل آدم كن بذاك دارى
ثم الكور في القياس والدبر
أو شعب أو جزيرة بلا بشر
أو شدة الماء ومرسى ترسه
فالفحل من دبر فيه نفسه
دقق وحقق اذا أخذت منها
خلاص ياربان من صنفها
ثم تأمله بذى السفالية
تهديك في الجنوب خذ عقليه
لاغيرها في هذه الطريق
نعم ، منها علم بالتحقيق (٧٥)

وهكذا يذكر ابن ماجد كل ما يحتاجه المسافر الى مناطق شرق افريقيا من أمور ملاحية وفلكية ، فهو يبدأ بتعريف القياسات التي يجب اتباعها في تحديد المجرى الذي يتخذه المسافر في مياه شرق افريقيا . كما يعطي أوصافا لطبيعة المجرى من حيث عمقه أو ضحالة المياه فيه ثم بيان حركة المد والجزر والشعب والرؤوس والجبال والمنارات في تلك المياه ، كما يفصل في الدوامات واتجاه الرياح في ذلك الساحل في مختلف أوقات السنة التي تحدد مواسم السفر . وفي رأيه أن من يتبع تعليماته بدقة وتحقيق يصل الى أقصى مناطق شرق افريقيا بسلام (٧٦) .

ففي مواسم السفر الى شرق افريقيا ، يبدو من كلام ابن ماجد أن لكل منطقة من مناطق الساحل موسم

تعد معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق افريقيا ، اقل قسم كتب فيه إذا قورنت بمعلوماته الجغرافية والملاحية . ولكن قيمة هذه المعلومات تكمن في كونها قائمة على مشاهداته الشخصية ، لذا يمكن استخدامها في اثبات ونفي الاحداث التاريخية التي تتضمنها الكتب التاريخية والجغرافية التي اهتمت بالكتابة عن تلك المنطقة .

يشمل ما أورده ابن ماجد من معلومات تاريخية عن شرق افريقيا جوانب سياسية واقتصادية . ففي القسم السياسي تأتي معلوماته في سياق الحديث عن مدن وجزر تلك المنطقة حيث يشير الى الوضع السياسي فيها بين الحين والآخر .

وفي الوقت الذي لاتنال مدن ساحل منطقة (بربرا) منه سوى ذكر أسماء بعضها^(٨١) . نجده يبدأ بذكر مدن (بلاد الزنج) مبتدئاً بمقديشيو تلك المدينة التي بلغت أوج ازدهارها في القرنين ٧ و ٨ هـ ١٣ و ١٤ م. ، ونالت اهتمام الكثير من الكتاب العرب .

ففي القرن ٧ هـ / ١٣ م يشير ابن سعيد أن مدينة مقديشيو أول أرض الزنج وهي « مدينة الاسلام المشهورة في ذلك الصقع المترددة الذكر على السن المسافرين »^(٨٢) . اما ابن بطوطة في القرن ٨ هـ / ٤ م فإنه يتكلم بصورة تفصيلية عن هذه المدينة ويعدها مركز الحكم العربي الاسلامي في المنطقة ويذكر أن العرب أقاموا فيها حكماً قائماً على الشورى^(٨٣) .

خاص للسفر اليه . وقد فصل في ذلك في « ارجوزته السفالية » فهناك موسم للسفر إلى مقديشيو وآخر الى كلوة وثالث الى سفالة وجزر القمر . وهذه المواسم تتفق مع مواسم الرياح وملاءمتها للسفر في البحر^(٧٧) . ويرى ابن ماجد أن مواسم السفر تتحكم فيها حالات المد والجزر والامطار أيضا^(٧٨) .

أما مسألة الكواكب (النجوم) التي تتحكم في تحديد الخروج أو عدمه الى بحر الشرق الافريقي ، فيفصل ابن ماجد فيها ويبين الاتجاه الذي يزيد أو ينقص معه تأثير هذا العامل .^(٧٩)

ومن المرشحات البحرية التي يتعرض ابن ماجد الى ذكرها ، فضلاً عن النجوم ، القاع الطينى والحشائش والنباتات وبعض أنواع الطيور والاسماك ، فمثلاً من يرى طيور (القرعا والمنجي) واسماك (البتان والبهلول) عليه أن يعرف أن بينه وبين بر الصومال مسير نحو ١٢ ساعة تقريباً بالشرع اذا كانت الريح مواتية^(٨٠) .

وهكذا كان ابن ماجد الملاح يجمع الخبرة بعالم البحر والعلم بطرقه الملاحية البحرية وبالالتها والظواهر البحرية ، وقد سجلها في مصنفاته ليفيد منها كل من ركب مياه شرق افريقيا .

معلومات ابن ماجد التاريخية عن شرق افريقيا :

بصورة متكررة ، مؤكداً في ذلك على سيطرة هذه المدينة على كثير من مدن الساحل مثل منبسه وسفالة الواقعة جنوبها وزنجبار وما فيا الواقعة شمالها^(٨٨) . بلغت مدينة كلوة منذ القرن ٦هـ / ١٢م درجة كبيرة من السطوة والنفوذ . وقد منحها موقعها المتوسط في ساحل افريقيا الشرقي قوة سياسية في المنطقة ، فاستحوذت عليها بالقوة تارة وبالسياسة والمصاهرة تارة أخرى ، ولم تفقد نفوذها الا بعد مجيء البرتغاليين الى المنطقة^(٨٩) .

أما منطقة مناجم الذهب في سفالة فيبدو أنها كانت مستقلة بنفسها وليس لاحد سيادة عليها ، ولها ملك خاص بها يسميه ابن ماجد (الزنباوى) ويقول أن مركز حكمه في مدينة (خوركوامه) ، والناس الذين يحكمهم ملك هذه المنطقة ما زالوا كفاراً^(٩٠) .

كتب ابن ماجد عن مدن شرق افريقيا بصورة متفرقة دون أن يحاول الربط بينها ، وهو بهذا يؤكد ما نعرفه عن الوضع السياسي للساحل الافريقي الشرقي ، حيث أن العرب لم يستطيعوا ان يكونوا دولة واحدة قوية تجمعهم في تلك المنطقة ، بل كونوا امارات مستقلة عن بعضها البعض ، وان كان قسم من تلك الامارات قد فرض سيادة واسعة على المنطقة اجمعها^(٩١) . اما ايام ابن ماجد فقد كان لكلوة دور السيادة على مناطق

أما ابن ماجد فلم ترد عنه أى من هذه التفاصيل عن مقديشيو ، والسبب في ذلك يعود لأن هذه المدينة كانت في أيامه قد فقدت أهميتها السياسية والتجارية معا ، حيث بدأ النفوذ العربي الاسلامى يمتد نحو الجنوب بصورة أكثر ، فحرمها من أهميتها كمركز سياسي وتجاري منذ منتصف القرن ٨هـ / ١٤م .^(٨٩) . وكذلك الحال بالنسبة لمدن مركة وبراو ووكاوة ولامو .. الواقعة جنوب مقديشيو حيث لم يهتم ابن ماجد الا بالنواحي الجغرافية والملاحية التي تتعلق بها^(٩٥) .

يسافر ابن ماجد بعد ذلك الى مدينة مالندى ، تلك المدينة الصغيرة التي لم تحظ باهتمام الكتاب العرب حتى القرن ٦هـ / ١٢م . حيث ذكرها الادريسي لأول مرة على انها مدينة من مدن الزنوج . المهمة^(٩١) . وقد أخذت هذه المدينة في الازدهار حتى بلغت مركزا مرموقا في القرن ٩هـ / ١٥م ، الا أن ذلك الازدهار لم يؤهلها للسيطرة السياسية على مناطق الساحل الافريقي الاخرى . واكتفت بمركزها التجاري في المنطقة ، ومن هذا المنطلق ، على ما يبدو ، اراد ابن ماجد ان يشد انتباه المسافر اليها^(٩٧) .

ينتقل ابن ماجد الى مدينة كلوة ، ويسميتها كلوة الملوك ويعدها مقرا لحكام كثير من مناطق الساحل الافريقي على أيامه ، ترد كلوة في ارجوزة ابن ماجد (السفالية)

الساحل شمالها وجنوبها ، كما
أشرنا .

والشئ الذي يثير الدهشة ان ابن
ماجد لم يشر الى الخلافات التي كانت
قائمة بين بعض مشايخ الامارة في هذا
الساحل والتي أدت الى اخفاقها ، اذ
كانت المنافسات على أشدها فيما بينهم
من أجل توسيع مناطق نفوذهم على
حساب البعض من جهة ، والسيطرة
على مناطق الذهب في سفالة الغنية من
جهة أخرى ، وإنما اكتفى بذكر
سيطرة كلوة على الساحل بما فيه
سفالة^(٩٢) .

وهناك ناحية مهمة تخص الوضع
السياسي للعرب في منطقة شرق افريقيا
قبل ابن ماجد وفي أيامه فالامارات
العربية التي نشأت في تلك المنطقة لم
تتعمق الى الداخل لتفرض سيطرتها
السياسية والحضارية ، وإنما اكتفت
باقامة علاقات تخدم مصالحها
التجارية بشكل يؤمن لها وصول
منتجات الداخل من ذهب وعاج
وغيرهما^(٩٣) .

وهذا الوضع يفسر لنا لماذا لم يكتب
ابن ماجد الا عن مدن الساحل ولم
يحاول ان يتعمق في داخل شرق
افريقيا ، بل نجده يشير صراحة الى
ان مناطق العمق في المنطقة ما تزال
مواطن الهمج والكفار لعدم وصول
العرب المسلمين اليها^(٩٤) .

أما أهم معلومة تاريخية وصلتنا
عن ابن ماجد ، فهي تسجيله لدخول
البرتغاليين الى شرق افريقيا ، وقد كان
فيها شاهد عيان .

ان ارجوزة ابن ماجد (السفالية)
هي الوحيدة التي جاء فيها ذكر
الافرنج (يقصد البرتغاليين) ، حيث
ورد أسمهم ١٤ مرة ، وجاء ذلك لأول
مرة عند وصف الرياح الموسمية التي
تهب على الشاطئ الشرقي لافريقيا
لمنطقة كلوة ، وعدم معرفتهم بمواعيد
هبوب هذه الرياح مما أدى الى الحاق
الكوارث بسفنهم وهو يقول :

زلوا بها الافرنج علق الموسم
في عند ميكال بالتوهم
قام عليهم موج تلك الروس
في سفالة بقى معكوس

وانقلبت أذفالهم في الماء
والسفن فوق الما يا خائي
غرقا يرون بعضهم لبعض
وكن عارفا موسم تلك
الارض^(٩٥)

ويسجل لنا ابن ماجد ان الذي دفع
الافرنج الى المجيء الى شرق افريقيا
هو الطمع حيث كان هدفهم السيطرة
على ما هو موجود فيها من معادن ،
لاسيما في منطقة سفالة من ذهب
ونحاس وفضه^(٩٦) . وقد اشار ابن
ماجد الى أن سفن الافرنج أبحرت
بحذاء ساحل سفالة في عام ٩٠٠هـ/
١٤٩٥م وهي في طريقها الى الهند ،
وبعد أن ظلت سنتين عادت هذه
السفن الى شاطئ افريقيا الشرقي ،
فيقول :

جازتها في عام تسعمائة
مراكب الافرنج يا خاية
تعبير عامين كاملين
فيها ومالوا الهند باليقين

ما اتضحت الحقيقة للجميع بما فيهم أحمد بن ماجد نفسه . ولذا فقد اعتبر السيطرة على مناطق المحيط الهندي حالة حرب ، وتمنى لو أن الله أطل في عمره ليشهد (زمان الصلح) حتى يمكن أن يحقق أماله وأحلامه (١٠٠) .

لأنهم لم يتركوا هذا الطرف فسوف علمهم لديك تعرف ان طالت الايام والليالي فإنها تسفن على الزوال لو كنت أحيا لزمان الصلح كتبت علما يستحق المدح (١٠١) .

وهكذا فان أحلام ابن ماجد وأمله كانت في التخلص من السيطرة البرتغالية التي فرضت نفسها على الساحل الأفريقي الشرقي بالقوة . تعد معلومات ابن ماجد عن وصول البرتغاليين الى شرق افريقيا وسيطرتهم عليه مادة تاريخية ذات قيمة كبيرة لأنه شهد الأحداث بعينه . فهو مصدر معاصر لا غنى للباحث عنه في تاريخ شرق افريقيا للقرن السادس عشر .

أما معلومات ابن ماجد الاقتصادية ، فعلى الرغم من قلتها فانها تفيدنا في رسم معالم النشاط التجاري الذي شهدته مناطق الشرق الأفريقي . والذي اقتترن بوصول العرب الى تلك المناطق . فقد كان العرب وحتى القرن ١٠ هـ / ١٦ م سادة المحيط الهندي والمتحكمين في تجارته . وقد نشطت تجارتهم في شرق افريقيا من أجل الحصول على

من حاول (السين يخاف مالا ما يرتجى والا ترك الامالا ورجعوا من هندهم للزنج في هذه الطريق الافرنج (٩٧)

وإذا كانت أخبار ابن ماجد عن وصول البرتغاليين الى شرق افريقيا قد اتسمت في البداية بوصف هذا الوصول دون تعليق ، فاننا نجد أن ابن ماجد سرعان ما شاهد واقع الاستعمار البرتغالي بنظامه الدخيل على المحيط الهندي الذي أساء الى الملاحة العربية (٩٨) . وعرف عن كتب غزوه للساحل الأفريقي الشرقي وجزره ابتداءً من المناطق الواقعة جنوب سفالة وامتلاكهم لها ، حيث يقول :

وسعدنا على الجنوب تأتي جزر « شربوه » وهم ثلاث ثلاثة مجربة محررة عمن راها من قبل مخبرة وخشب الافرنج قد جاؤوها وملكوها بعد أن حازوها وما من بعدهم سوى جزيرة وازة

ولا جنوبيها أحد قد جازة (٩٩) يظهر أن ابن ماجد مثل غيره ممن شهد وصول البرتغاليين لشرق افريقيا . لم يقدر أبعاد هذا الوصول . بل الأنكى من ذلك أن بعض سكان شرق افريقيا كانوا ظنوا أن البرتغاليين من المسلمين جاءوا من الغرب فقدموا المساعدة كما كانوا يفعلون مع المسلمين دائماً لمعرفةهم بأهدافهم ونواياهم تجاه المنطقة ولكن سرعان

منتجاتها وحملها الى مراكز الاستهلاك ، وكانت اهم هذه المنتجات الذهب والفضة والعاج والحديد والعنبر وغيرها .

ان اهتمام العرب بتجارة الذهب في شرق افريقيا قد بلغت ذروتها في نهاية القرن ٩ هـ / ١٥م وبداية القرن ١٠ هـ / ١٦م^(١٠٢) . ولذا يؤكد ابن ماجد ولرات عديدة على منطقة سفالة حيث مناجم الذهب فيصف الطريق الملاحي التجاري الذي يؤدي اليها ابتداءً من الخليج العربي والجزيرة العربية ، مفصلاً في كل مرحلة من مراحلها ، مبيناً للمسافر الموانئ والمدن الموجودة على طوله ، موضحاً مخاطر هذا الطريق ومصاعبه والأسس التي يجب مراعاتها في السير في مياه شرق أفريقيا وصولاً الى سفالة^(١٠٣) .

تنال منطقة سفالة ، حيث معادن الذهب ، الحظوة في كتابات ابن ماجد كما أشرنا ، فقد وضع حدودها وأسماء مدنها وموانئها ، واصفاً بدقة مناجم الذهب في سفالة والتي تقع على مسيرة شهر من مدينة سفالة باتجاه الغرب من مناطق مغمورة بالمياه (الأنهار) ، وهذه المناجم هي امتداد لمناجم الذهب في النوبة . ويقدر ابن ماجد مساحة منجم ذهب سفالة بمسيرة سبعة أيام ، فهو يقول في ذلك :

مع هؤلاء المكين السفالي
ومعدن النوبة لهم يوالي
يتصلوا ببعضهم البعض

وبينهم البحر وحل بارض
راضي على البحر من المغارب
خبرني عنهم ذوي التجارب
مسيرة يا أخي سبعة أيام
يجون بالبشاشات يا همام^(١٠٤)

وينظرون لبلوغ الكفرة
بل في بحر العرب فذا المخيرة
ومن السلع التجارية التي يذكر
ابن ماجد المسافرين الى شرق أفريقيا
بهاهي العاج والعنبر .

والمعروف ان هذه السلع متوفرة في
عدة مناطق من شرق افريقيا ، ولكن
ابن ماجد أراد التعرف بها حيث يذكر
منها « ملنبوني » (ميناء بين كلوة
وسفالة) ، جزيرة « شربوه » جنوب
سفالة ، فيقول :

منها على القطب ملنبوني ترى
لمعدن الرجون ثم العنبرا^(١٠٥)

وبعدها على الجنوب تأتي
جزيرة (شربوه) وهم ثلاث
احمرهم يا صاحبي وشيكا
والعاج والعنبر فيها يديكا^(١٠٦)

كما يشير ابن ماجد الى كثرة
الحيوانات من السباع والفيلة في
المناطق الواقعة جنوب سفالة ، ولعل
هذه تذكرة للراغبين في الحصول على
العاج والجلود^(١٠٧) .

ويذكر ابن ماجد زوار المنطقة دائماً
بالمراكز التجارية المهمة فيها ، فمثلاً
يشير الى أن منبسه مركز تجاري
غني .

فأدخل « هنيث » بمسرات السفر
المنبسة فيها المبيع والظفر^(١٠٨) .

والواقع ، كما يستوحى من اشارات ابن ماجد ، ان الجزر الواقعة في منطقة سفالة ، مراكز مهمة للبيع والشراء عامرة بالحركة^(١١٦) .

ترتب على النشاط التجاري الذي شهده شرق افريقيا على يد العرب ان ارتبطت هذه المنطقة عبر طرق التجارة البحرية بالخليج العربي والشرق الأقصى (الهند والصين) ، وهذا ما أشار اليه ابن ماجد حيث وصف هذه الطرق في (سفاليته) ومن المعلومات الحضارية التي يؤكد عليها ابن ماجد انتشار الاسلام الواسع في شرق افريقيا ، ففي جزيرة زنجبار - مركز الحكم الاسلامي المبكر - يذكر بأن هناك ٤٠ مسجداً جامعاً منتشراً في أنحاءها^(١١٧) .

ويؤكد ابن ماجد في هذا المجال الحقيقة المعروفة وهي وصول الاسلام والحضارة العربية الاسلامية حيث المناطق التي وصلها العرب المسلمون في شرق افريقيا بينما ظلت المناطق الأخرى مواطن للكفار والهمج ، ومنها البلاد الواقعة جنوب سفالة^(١١٨) . كما نجد أن بعض المناطق ، لاسيما بين كلوة وسفالة ، قد انتشر الاسلام بين سكانها على الرغم من بقاء حكامها على كفرهم^(١١٩) .

لا يكاد يوجد لدينا بين معلومات ابن ماجد عن شرق افريقيا شيء عن طبقات المجتمع أو عن الحياة الاجتماعية ، التي لا بد أنه عرفها عن كتب ولسها شخصياً في رحلاته ، ولكن نستطيع أن نستشف من كتاباته

أن المدن والامارات العربية في شرق افريقيا قد ضمت العرب والافارقة . وهذه حقيقة واقعة ، حيث ان العرب توافقوا الى هذه المنطقة واختلطوا بسكانها من الافارقة وأصبحت مدنهم واماراتهم التي أنشأوها في شرق افريقيا تحمل في نظمها وتقاليدها أصولاً عربية وافريقية ، خاصة بعد التقارب والتمازج الذي حصل بين العرب وسكان المنطقة^(١٢٠) .

لم يشر ابن ماجد الى شيء من هذا ، فلا نسمع منه شيئاً عن الشعب السواحيلي الذي هو نتاج التمازج بين العرب والافارقة واللغة السواحيلية التي هي مزيج من العربية واللهجات الافريقية . كما لم يذكر ابن ماجد ، مع الأسف ، شيئاً عن مظاهر الحضارة العربية الاسلامية التي نقلها العرب الى شرق افريقيا والتي شهد بها حتى المستعمرين الأوروبيين^(١٢١) .

ان بيانات ابن ماجد الخاصة بالوضع السياسي والاقتصادي في شرق افريقيا والقائمة على مشاهداته الشخصية من خلال زيارته لموانئ المنطقة وجزرها تجعلنا نعد ما كتبه ابن ماجد مصدراً مهماً في تدوين تاريخ شرق افريقيا . وحق على مؤرخينا أن يولوا كتاباته مزيداً من الاهتمام .

د. صباح ابراهيم الشبخلي
جامعة بغداد - كلية الآداب

المصادر:

- ١ - عبدالرحمن عبدالكريم العاني ، دور العمانيين في الملاحة والتجارة الاسلامية القرن الرابع الهجرى (سلطنة عمان ، ١٩٨١) ص ١٩ - ٣٢ - ٣ .
- ٢ - ابو الحسن على بن الحسين المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد (القاهرة ، ط ٣ : ١٩٥٨) ج ١ ١٠٧ - ٨ .
- ٣ - المصدر نفسه .
- ٤ - شوقي الجمل دور العرب الحضارى في شرق أفريقيا في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ندوة العلاقات بين الخليج وشرق أفريقيا ، رأس الخيمة ، ١٩٨٧ ، ص ١١ انظر أيضاً R.cupland, East Africa and its invaders (London, 1934) b.21 .
- ٥ - عبدالرحمن العاني ، عمان في العصور الاسلامية الاولى (بغداد ١٩٧٧) . ص ٨٨ ، عامر محمد المجرى ، تاريخ العلاقات العمانية - الافريقية ، بداية التواجد العماني في شرق افريقيا ، البحوث المقدمة الى مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (الدوحة ، قطر ، ١٩٧٦) ج ٢ ص ٧٧٦ - ٧٧٧ .
- ٦ - أحمد حمود المعمرى ، عمان وشرقي أفريقيا ، ترجمة محمد أمين عبدالله (سلطنة عمان ، ١٩٨٠) ص ٤٤ .
- ٧ - عبدالرحمن زكي ، الاسلام والمسلمون في أفريقيا (القاهرة ، ١٩٧٠ ج ١ ص ٧٧ - ١١٩ ، المجرى - المصدر السابق ص ٧٧٧ .
- ٨ - خولة شاكر الدجيلي ، العلاقات العربية الاسلامية مع الساحل الافريقي الشرقي حتى القرن التاسع الهجرى ، اطروحة دكتوراة غير منشورة (جامعة بغداد ، كلية الاداب ، ١٩٨٠) ٧٨ - ٨١ .
- ٩ - أحمد بن ماجد النجدى ، كتاب الفوائد في اصول علم البحر والقواعد تحقيق ابراهيم خورى وعزة حسن (دمشق ، ١٩٧١) ص ١٠ .
- ١٠ - اغناطيوس كراتشوفسكى ، تاريخ الأدب الجغرافي العربى ، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم (القاهرة ، ١٩٦٥ ، ج ٢ ص ٥٧٣ .

- ١١ - أنور عبدالعليم ، ابن ماجد الملاح (القاهرة ١٩٦٧) ص ١٣ ،
كراتشوفسكى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧٣ .
- ١٢ - ابن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٣ .
- ١٣ - أحمد محمد عطية ، المعلم والاسستاذ والشاعر والفلكي والملاح ورائد علم
المرشدات البحرية ، الوثيقة ، العدد ٢ ، السنة الأولى (١٩٨٣) ص ١٥٨ .
- ١٤ - أحمد بن ماجد ، ثلاث أزهار في معرفة البحار ، تحقيق ثيودور شومونسكى ،
ترجمة محمد منير مرسى (القاهرة ، ١٩٦٩) ، ص ١١ ، ٤٢ ، ١٢٣ .
- ١٥ - المصدر نفسه ، ص ١٤ ، ٢٣٥ .
- ١٦ - اطلع ابن ماجد على كثير من المؤلفات الجغرافية التاريخية للمسعودي وابن
حوقل وابي الفدا وغيرهم . المصدر نفسه ص ١٠٠ ، ص ١٧١ .
- ١٧ - ابن ماجد ، كتاب الفوائد ، ص ٣ .
- ١٨ - المصدر نفسه ، ص ٧ (المقدمة) . ثلاث أزهار ، ص ٥١ .
- ١٩ - الفوائد ، ص ١٨ .
- ٢٠ - المصدر نفسه ، ص ١٨ .
- ٢١ - كراتشوفسكى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٧٧ .
- ٢٢ - ابن ماجد ، الفوائد ص ص ١٥٩ - ١٦٠ .
- ٢٣ - المصدر نفسه ، ص ص ٢٦٩ - ٧١ ، ٢٧٢ .
- ٢٤ - المصدر نفسه ، ٢٩٢ ، ٢٩٩ .
- ٢٥ - المصدر نفسه ، ص ص ٣٢٨ - ٣٣٤ .
- ٢٦ - ابن ماجد ، ثلاث أزهار ، ص ٥١ .
- ٢٧ - المصدر نفسه ، ص ٥١ .
- ٢٨ - المصدر نفسه ، ص ص ٣٢ - ٤١ - ٤٤ .
- ٢٩ - المصدر نفسه ، ص ٤٢ .
- ٣٠ - المصدر نفسه ، ص ٤٧ .
- ٣١ - المصدر نفسه ص ٤٩ .
- ٣٢ - المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
- ٣٣ - المصدر نفسه ، ص ٤٢ .
- ٣٤ - المصدر نفسه ، ص ٨٩ ، ٢٠ ، ٢٣ .
- ٣٥ - المصدر نفسه ، ص ١٧ - ١٨ . ابن ماجد ، الفوائد ، ص ص ٢٧٢ - ٣
- ٣٦ - المسعودى ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦ .
- ٣٧ - ابن ماجد ، ثلاث أزهار ، ص ٤٤ .
- ٣٨ - المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
- ٣٩ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .
- ٤٠ - المسعودى المصدر السابق ج ١ ص ١٠٧ ياقوت الحموى معجم البلدان
(القاهرة ١٩٠٦) ج ٢ ص ١٠٦ ابن سعيد المغربى كتاب الجغرافية تحقيق

- اسماعيل العربي (بيروت ١٩٧٠) ص ٨٢ .
- ٤١ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .
- ٤٢ - المسعودي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٦ ، الحموي ، ج ٥ ، ج ٣ ، ص ٢٢٤ ، زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، أثار البلاد وأخبار العباد (دار صادر بيروت ١٩٦٠) ص ٦٢ .
- ٤٣ - مروج الذهب ، ج ٢ ص ٦ .
- ٤٤ - انظر الصفحات التالية :
- ٤٥ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤١ .
- ٤٦ - المصدر نفسه ، ص ١٧ ، ٢٧ ، ٤١ الفوائد ٢٧٢ .
- ٤٧ - ثلاث ازهار ، ص ٤٤ ، المسعودي ، ج ١ ص ١٠٧ ، ابو عبدالله بن محمد الادريسي نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، نسخة مصورة بالفوتستات عن نسخة البودلاين اكسفورد ، مخطوطة محفوظة في مكتبة المجمع العلمي العراقي (رقم ١٥ - جغرافية) ورقة ٧٠ .
- ٤٨ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٧ .
- ٤٩ - المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
- ٥٠ - الدجيلي ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
- ٥١ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٩ .
- ٥٢ - المصدر نفسه .
- ٥٣ - الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣٣ .
- ٥٤ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٠ .
- ٥٥ - المسيوجان ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية ، ترجمة يوسف كمال (القاهرة ، ١٩٢٧ ، ص ٢٢٤ .
- ٥٦ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٦ .
- ٥٧ - المصدر نفسه ، ص ٣٧ .
- ٥٨ - المصدر نفسه ، ص ٢٩ .
- ٥٩ - المصدر نفسه ، ٤٤ .
- ٦٠ - المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
- ٦١ - المصدر نفسه ، ص ٤٤ - ٥٠ .
- ٦٢ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٧٢ .
- ٦٣ - المصدر نفسه ، ص ٢٩٢ .
- ٦٤ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٣٥ .
- ٦٥ - المصدر نفسه ، ص ٣١ .
- ٦٦ - المصدر نفسه ، ص ٣١ - ١٢٧ .
- ٦٧ - المصدر نفسه ، ص ٣١ - ٣٢ .
- ٦٨ - المصدر نفسه ، ص ٣١ .

- ٦٩ - المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
- ٧٠ - المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
- ٧١ - المصدر نفسه ص ٣٣ - ٤ .
- ٧٢ - المصدر نفسه ، ص ٣٢ .
- ٧٣ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٢٩ .
- ٧٤ - المصدر نفسه .
- ٧٥ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ١٧ .
- ٧٦ - المصدر نفسه ، ص ٥١ .
- ٧٧ - المصدر نفسه ص ٤٠ ، ٥٠ ، ٥١ .
- ٧٨ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٣٢٨ .
- ٧٩ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ص ١٨ - ١٩ وما بعدها . كما ذكر ابن ماجد معلومات مفصلة عن المنازل الفلكية والنجوم الملاحية التي يهتدى بها الریان في كتابة الفوائد في الفائدة الثالثة والفائدة الرابعة ، ص ٣١ - ١٧٨ .
- ٨٠ - الفوائد ، ص ٢٥٠ .
- ٨١ - المصدر نفسه ، ص ٢٧٢ .
- ٨٢ - ابن سعيد ، المصدر السابق ، ص ٨٢ .
- ٨٣ - محمد بن عبدالله اللواتي المشهور بابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة (بيروت ١٩٧٩) ، ج ١ ص ٢٨٢ .
- ٨٤ - Durate Barbosa, The book of Durate Barbosa: an account of the countries bordering on the Indian Ocean and their inhabitants completed about the year 1518 A.D, translated from the Portuguese text by M.L. Dames Vol-1 (LONDON, HAK. Soc. 1918) No. 1.P.31.
- ٨٥ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٧ .
- ٨٦ - الادريسي ، المصدر السابق ، ص ٣١ .
- ٨٧ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٢٩ .
- ٨٨ - الجمل ، المصدر السابق ، ص ١٨ .
- ٨٩ - جيان ، المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .
- ٩٠ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٢ .
- ٩١ - الجمل المصدر السابق ، ص ١٨ .
- ٩٢ - جيان المصدر السابق ، ٢٤٦ .
- ٩٣ - الجمل . المصدر السابق ، ص ١٨ .
- ٩٤ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤١ - ٠٠٢ .
- ٩٥ - المصدر نفسه ، ص ٤٠ .
- ٩٦ - المصدر نفسه ، ص ٤٢ .

- ٩٧ - المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
٩٨ - المصدر نفسه ، ص ١١٨ .
٩٩ - المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
١٠٠ - المصدر نفسه ، ص ١٢٢ .
١٠١ - المصدر نفسه ، ص ٤٨ .
١٠٢ - الجمل ، المصدر السابق ، ص ٢٠ .
١٠٣ - انظر ما ذكرناه سابقا .
١٠٤ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ٤٢ .
١٠٥ - المصدر نفسه ، ص ٣٨ .
١٠٦ - المصدر نفسه ، ص ٤٤ .
١٠٧ - المصدر نفسه ، ص ٤٥ .
١٠٨ - المصدر نفسه ، ص ٣٠ .
١٠٩ - المصدر نفسه ، ص ٤٩ .
١١٠ - ابن ماجد ، الفوائد ، ص ٢٢٩ .
١١١ - ابن ماجد ، ثلاث ازهار ، ص ص ٤١ - ٢ .
١١٢ - المصدر نفسه ، ص ٣٨ .
١١٣ - هذا ما اشار اليه الكتاب العرب قبل ابن ماجد . انظر ابن بطوطة ، رحلة
ج ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٣ . واثار الكتاب البرتغاليون الى ذلك أيضا انظر ،
الجمل المصدر السابق ، ص ٤٢ .
١١٤ - الجمل ، المصدر السابق ، ص ١٧ .